أقرب أشباه الانسان

من الجرائد

لوليم مان (١)
مدير حديقة الحيوانات في واشنطون
نقلها خليل الخوري الناضي بالمحاكم السودانية سابقاً

من خصائص الانسان احترامه الاكبر بنفسه وبسائر بني الانسان اخوانه ولهذا من الطبيعي ان يعنى الانسان ايضاً بالقرود التي تشبه البشر

ومع اننا لا نرى في هذا الزمن احداً يزعم ان الانسان منحدر من نسل القردة او ان القرود هم اجداده فاننا نرى تشابهاً بليغاً بين القرود الكبيرة وبين الانسان في خصائصها التركيبية والفسيولوجية بل العقلية ايضاً . فهذه القرود الكبيرة تشبه الانسان اولاً بان ليس لها أذناب. وثانياً انها تمشي في الغالب على ارجلها فقط. وثالثاً ان في ايديها واقدامها مثل العدد من الاصابع التي في ايدي الانسان وارجله. ورابعاً ان عدد اسنان القرد كعدد اسنان الانسان. ولكن هذه القرود تختلف عن الانسان في ادمغتها . فبينما نرى ان مساحة اصغر الجماجم البشرية وهي جمجمة معروفة قديمة اكتشفت في بيرو في اميركا الجنوبية ٩١٠ سنتيمترات مكعبة، فان دماغ الغورلا الذي هو اكبر القردة لا تزيد مساحته عن ٦٠٠ سنتيمتر مكعب على ان متوسط دماغ الانسان الاعتيادي ١٥٠٠ سنتيمتر مكعب

ثم ان القرود الكبيرة عرضة لكثير من الامراض التي تصيب الانسان في جهازها الهضمي زوائد دودية كالزوائد في الانسان وهي معرضة للالتهاب والقرود تلد احياناً وهي نائمة وطفل القرد يشبه طفل الانسان في انه يبقى اشهراً عالة على امه لا يستطيع الحركة ومدة الحمل عند الغورلا والشمبانزي والاورانغوتان هي تسعة اشهر ووزن جنين القرد عند ولادته يتفاوت بين ثلاثة ارطال وسبعة ارطال وعند الفيل الذي تبلغ مدة الحمل سبعة اشهر . وأضخم القرود الاربعة المذكورة وأثقلها وزناً هو الغورلا الذي يزيد طول قامته الامامية عن طول قامتي الشمبانزي وحجاد اكثر قوة وله صدر ضخم ويمشي على الاربع عادة ومع انه يقدر ان يمشي على رجليه وحدهما فانه يحس ذلك كثيراً من سائر القرود الثلاثة و يقف دائماً عند ما يضرب على صدره لاظهار الفرح أو الغيظ أو القوة أو التهديد وقد كان احد الغورلات الصغار في حديقتنا مغرماً بالوقوف والدوران حتى يدوخ ويقع على الارض. وللغورلا أذان اصغر من أذن الشمبانزي

(١) نشر المقال في مجلة الجمعية الجغرافية الوطنية الاميركية National Geographic Magazine

وعيون أكثر قراراً وهدوءاً . والشمبانزي أكثر فظاظة من سائر اخوانه وخصوصاً وهو طفل فهو يفرط في المرح واللعب وهو شغوف بضرب الارض وإحداث ضجة وضوضاء

اما الاورانغوتان فهو ذو ساعدين طويلين أحمر الشعر وأحمر الرأس وله وجه مضحك واطفاله على العموم تقوم بحركات مضحكة مسلية جداً . أما البالغون فهم شرسون جداً في نظر أنفسهم وفي افعالهم وهذا القرد يعيش دائماً في الاشجار ويندر ان ينزل الى الارض الاَّ اذا اراد الانتقال من شجرة الى شجرة ولم يكن بينهما اغصان يعبر عليها كالجسور، فانهُ ينزل الى الارض ليصعد الى الشجرة التي يبغي الانتقال اليها

اما الغبون وهو أصغر الاربعة حجماً فهو دمية الاطفال الآدميين وهو صغير ومتى كبر يصبح كالبهوان في حركاته وتنقلاته من غصن الى غصن فيتعلق باحدى ذراعيه بغصن ويتأرجح ثم يمسك غصناً آخر بذراعه الآخر ، وهكذا دواليك حتى يذرع شتى الاشجار بأقل من لمح البصر

هذه القرود الاربعة : الغورلا والشمبانزي والاورانغوتان والغبون تعرف بالقرود الكبرى على انها تختلف في الحجم من الغورلا الى الغبون وهذا الاخير يوجد في جزائر باجاي على شاطىء سومطرا . ومع ان القرد المعروف باسم بابون أضخم كثيراً من الغبون فانهُ لا يعد من القرود الكبرى التي نبحث الآن في امرها . ولا ترجد القرود الكبرى في العالم الجديد

وتمتاز القرود عن غيرها من الحيوانات بان لها نداءات واصواتاً خاصة تدل على معان خاصة. فمثلاً اذا امكنك ان تنطق هذا الصوت كما ينطق به الشمبانزي « وهُوْ وهُوْ وهُوْ » استرعيت بذلك انتباه طفل الشمبانزي. فقد سمعت قروداً تبكي من الحزن وتصرخ صراخاً خاصاً اذا أغضبت . وقد اقتنى المستر جارنر المشهور بدراسة لغات القرود قفصاً في غابة من غابات القرود أقام فيهِ ١١٢ يوماً ودوَّن كثيراً مما سمعهُ من نداءات القرود وأثبت أن لها أصواتاً تدل على الذعر والغضب والفرح . وكان يستطيع فيما بعد استرعاء انتباه القرود التي يراها في المدينة بأصوات تدل على الاكل أو غيره . وقد سألني البعض هل القرد أذكى من الكلب أو العكس . وجوابي على ذلك أن القرد أكثر رقياً من الكلب عمراحل جسماً وعقلاً ولكن الفرق بينهما ان القرد حيوان بري والكلب حيوان أليف . وفي وسع القرد ان يتعلم أشياء شتى ولكنهُ لا يستطيع ان يعلِّم ما تعلم وبهذا يتفوق عليهِ الانسان

وزعم هانو البحار القرطاجي الذي أبحر جنوباً على شاطىء افريقيا الغربي حوالي سنة ٥٠٠ قبل الميلاد انهُ شاهد « الآدميين البريين » الذين كان اهالي تلك الجهات يسمونهم الغورلا وقد فتكوا بهم ثلاثة وأخذ جلودهم عند عودته الى قرطاجة . حتى انهُ من الشكوك فيهِ جداً ان يكون هانو قد شاهد الغورلا نفسه . ونرجح انهُ رأى الشمبانزي

ويصف اندرو باتل البحار الانكليزي الذي أسره البرتغاليون في سنة ١٥٩٠ بعد الميلاد

ونشوءُ الى الغورلا في افريقيا الغربية ، حيواناً بريًّا ضارياً اسمهُ البونجو . ويقول ان الفرق بينهُ وبين الانسان ان البونجو ليس له عضلة الساق انسماة وتر الرجل او بطة الرجل وان البونجو يمشي منتصباً ، ويصنع لنفسهِ مأوى في قلب الأشجار ؛ وانهُ يفتك بالآدميين الذين يصادفهم وانهُ يهاجم الفيلة وسلاحهُ ذواماه الجبارتان وأعواد الأخشاب ويطاردها فتفر من امامهِ والواقع ان علمنا بالغورلا يعود فقط الى سنة ١٨٤٦ التي كشف فيها القس الدكتور ولسون جمجمة الغورلا وبعد ذلك بعشر سنين اكتشف بول دي شلوي الغورلا نفسه وهو اول من توصل الى معلومات صحيحة عن الغورلا . ويقول ان الغورلا متى غضب انتصب قائماً وقرع صدره قرعاً شديداً بيديهِ مقروناً بصوت يدوي في الفضاء « بوم بوم » . وقد يكون دوي الغورلا البالغ هكذا . وقد رأيت أنا صغار الغورلا تنتصب في حالة الغضب وتقرع صدرها قرعاً مقروناً بصراخ « راث، اتات، تات» . ولو أُبيح صيد الغورلا بدون قيد لانقرض ولكن صيده الآن مقيد ولا خوف من انقراض هذا الحيوان العظيم وهو يعيش في بطاح غربي افريقيا وفي المناطق الجبلية حول بحيرة كيفو في أواسط افريقيا شمال بحيرة تنجانيكا .

أما قوة الغورلا فهي هائلة فقد رووا انهُ اذا ضربه الصياد ولم يقتله هجم عليه وأمسك بماسورة البندقية ولواها ليًّا ثم عمد الى الصياد فهشمه تهشيماً وهذا ليس بالمستغرب ففي حديقتنا اقتلع الاورانغوتان قضبان الحديد في قفصه ولواها وقطر الواحد منها ثلاثة ارباع البوصة وهو دون الغورلا في قوته . وليس هناك حيوان آخر يتحدى الغورلا فهو فوق التحدي والمعروف انهُ اذا التقى بالجاموس البري تجنب احدهما الآخر . أما الأسد والغورلا فلا يلتقيان . وبرغم قوة انيابه وشراسته فالغورلا ليس وحشاً مفترساً وهو من آكلة الأعشاب ولكنه قد يأكل الطير وبيضه

والعادة ان يسير الغورلا جماعات وينام الغورلا الاكبر متكئاً على جذع شجرة ويترك للاناث والاطفال أعلى الشجرة ليناموا فيها فاذا ضخم الضجر عمد الى البحث عن طعامه وطعام اولاده فيجتث النبات ويأكل الجذور وهو مغرم بالكرفس (البري) وأغصان الخيزران والتوت البري . ومن غريب امر هذه القردة انها بينما هي لا تهيب مقاتلة أضرى الوحوش كالجاموس البري والفيل تراها تهلع من رؤية الافعى فاذا أراد خادم القفص ان يودع فيه الغورلا انتقاله الى الحجرة الداخلية المجاورة للقفص ليتمكن من تنظيفه او العكس فلا يجد سبيلاً لحمل الغورلا على الحركة او الانتقال . فاذا حاول رشوته بالفواكه او الحلوى أشار فيه الشبهات . وقد عثر هؤلاء الخدمة على طريقة سهلة جداً لخروج الوحش الجبار فيمسك الخادم أفعى حية فلا يتم نفير الغورلا عليها حتى تصطك ركبه من الخوف وينسحب الى مقيله . وأنا لم أصدق هذا حتى رأيته بنفسي . والغورلا في الغابة متى بلغ أشده وصل وزنه الى ٣٠٠ رطل وارتفاعه

الى حوالي ست أقدام وهو يسكن في أدغال افريقيا الغربية وفي جبال الكونغو البلجيكية الشرقية . أما في استقل فيزن من حتى يزن ٦٠٠ رطل . وسلاح الغورلا عدا ذراعيه الهائلتين نابان وهما أحدّ من الخناجر وأفتك منها . والشمبانزي يعيش في افريقيا الاستوائية المتوسطة والغربية وهو أقدر بطبيعته على تحمل معيشة الأسر من الغورلا واصطياده أسهل لأنه أوفر عدداً . وتعليمه أسهل من تعليم غيره من القرود . وقد زرت أنا وزوجتي مرة حديقة الحيوانات في فرنكفورت في المانيا فقدم لنا الحارس شمبانزيًّا فصافحني مصافحة ودية جدًّا ثم قدمه الى امرأتي فأمسك يدها وقبّلها وطبع على ظهر يدها قبلة محتشمة وهو متوسط بالسن بين الاشبار وحجمه أصغر من حجم الغورلا ولا تفاوت كبير في الحجم بين الذكر والانثى وعظم الحاجب أصغر وشكل أنفه مختلف كل الاختلاف . وقد لوحظ نوعان من الشمبانزي : ذو الوجه الأبيض وذو الوجه الأسود . وهو أخف حركة من الغورلا وكرشه أصغر

والاورانغوتان يعيش في أماكن قليلة في بورنيو وفي منطقتين من جزيرة سومطرا ومع قلة عدده فالحكومة هناك اي حكومة الهند الهولندية تحافظ عليه . وقد وضعت قوانين لصيانته بتقييد صيده — وقد اوفدت جامعة هارفرد في الولايات المتحدة الاميركية بعثة الى الهند الهولندية من ستوات لدرس طبائع هذا الوحش كما يعيش في الغابة فجمعت معلومات علمية نفيسة جدًّا واسمه كلمة في لغة الملايو معناها « انسان الغابات » وهو يعيش في الاشجار ويندر ان ينزل على الأرض فاذا نزل ظهر عليه التكلف وهو لين العريكة وألين من الشمبانزي . وقابلت في سومطرا احد هؤلاء وألِفَني وصار لي صديقاً وكان أحياناً يتناول غذاءه معي ويدخن سيكارة بعد الغداء ويلذ له التدخين بعد الطعام جدًّا . وطريقة صيد هذا الوحش اما بضرب أم الطفل بالنار وقتلها ثم استلاب طفلها واما بتدبير طريقة لفصل الطفل عن سائر أهله فيمكن امساكه بسهولة . وتوفقنا في سومطرا الى اصطياد اورانغوتان كبير دون الحاق الاذى به ولا بغيره فقد عثر عليه الصيادون في شجرة كبيرة فعمدوا الى قطع الاشجار المجاورة كلها فلما قطعت أمسح القرد منعزلاً في شجرته حيث ظل زمناً ثم نزل الى الارض لينتقل الى شجرة أخرى فنصبت أمامه اشباك وعلق باحدها . وقبل ان سنت الحكومة الهندية قوانين لحماية هذا الوحش كانوا يصطادون منه عدداً كبيراً ورأيت مرة واحداً وعشرين من هذه القرود بيعها الأم والأب والطفل وزرية وهم كثير في سومطرة وقيل لي انهم أمسكوهم باضرام النار تحت الاشجار التي وجدوهم فيها . والظاهر أن الدخان الكثيف الذي تصاعد من تلك النار المؤججة قد أرخى أعصابهم فوقعوا الى الارض وأمسكوا وقد منعت الحكومة هذه الطرق

أما القرود ذو الساعدين الطويلين فوجد في جنوب آسيا الشرقي وفي بعض جزر الهند

الشرقية وهؤلاء القردة يعيشون على ثمار الاشجار والأشجار مقرهم الدائم ولا ينزلون الى الأرض الا للانتقال الى أشجار بعيدة عن الأشجار التي يكونون فيها فيأكلون من الأشجار ويشربون ماء المطر الذي يجدونه في ثقوبها . وقد رأينا في غابات سومطرا الشمالية بعض هؤلاء القرود مستقرين في أشجار سامقة فلا يستطيع البصر ان يمتد الى أعاليها الا بعناء شديد . وهم يتنقلون من غصن الى غصن بخفة وسرعة فيخيل الى الناظر انهم يسبحون في الفضاء . وقد يهبط الواحد منهم في الفضاء حوالي ثلاثين قدماً ليمسك غصناً آخر غير الذي تركه في الأعالي . ويبادر الى الذهن انهم لا يخطئون في هذه السباحة الجوية ولا يزلون ، على انه وجد في الأحوال النادرة ان القرد قد يخطىء فيقع ويصيبه كسر في عظامه . والغيبون كغيره من القرود لا يعمر طويلاً في الأسر وقد لا يتجاوز بضع سنوات على اني أعرف غيبوناً عمّر ثلاثين سنة في حديقة الحيوانات في فيلادلفيا

وأعرف عالماً طبيعيًّا في كليرمونديي كان يحوز جماعة من الغيبون في مزرعته وكان يتركهم أحراراً يسرحون في الزرعة كيف شاؤوا فتعوّدوا ان يتسلقوا الى القرية ويتسلقوا قبة جرس الكنيسة ويدقوا أجراس الكنيسة . ومن سنوات كان صديقي المستر هرولد كولدج في الهند الصينية الفرنسية ورأى غيبوناً جميلاً عند الحاكم العام الفرنسي يسرح في المنزل وعند ما رآه يجول بمطلق الحرية خاف على مجموعات الخزف الصيني الثمين في المنزل ان يعبث بها القرد ويحطم بعضها فظن انه الحاكم الى ان القرد لم يؤذ قط شيئاً في البيت وبينما هما كذلك اذا بالغيبون يثب الى داخل المنزل من الجنينة الى أحد الرفوف ويتناول منها صحناً ثميناً جدًّا ويقذف به الى أعلى السقف ثم يتناوله وهو ساقط قبل ان يصل الى الارض . ثم أحضر المستر كولدج الغيبون وزوجته وابنه واحدى الثلاثة البنا ولا يزالون في حديقتنا . وأضيف إلى هذه الاسرة الكريمة عضو جديد والسيامنج نوع من الغيبون ويختلف عن سائر الغيبون بأن الاصبعين الثانية والثالثة من كل من قدميه متصلتان بنسيج من الجلد كما في الخناش وله جيب او كيس منتفخ في جوار زلعومه . ومن هذا الجيب او الكيس ينبعث أحد الزعيق او الصياح الذي لا نجاريه في حدته وبدائه صياح أحد هذه القرود الأربعة . وهذا الصياح مزيج من النهيق والعواء الطويل يتصاعد وهو أشبه بصفير البراخر عند تدويمها الى الوراء . وهذا الصوت مألوف عند أهل سومطرا في الصباح والمساء والانسان هناك يسمعه من الغابات القريبة والبعيدة لتوافر السيامنج هناك . والسيامنج كسائر الغيبون خفيف الحركة سريعها والقرود من نوعه موجودة في قفص بارنوم ثلاثون قرداً وذات يوم كان قرد منقضًّا في طرف القفص يحدق في خوانه في قفص مجاور وكان حارس القفص واقفاً في الطرف المقابل من القفص فاتفق ان أدار ظهره للقرد وفي نفس هذه اللحظة هجم القرد على الثعبين فقط فوصل

الى الحارس فأمسكه بشعر رأسه باحدى يديه وجذب الرأس الى قضبان القفص ولطمهُ ايضاً بيده الاخرى لطمة عنيفة تجاوب صداها في الفضاء ثم انسل الى حيث كان . كل هذا حصل قبل ان يتمكن الحارس من الالتفات الى ورائه . وتبلغ سرعة الغيون احياناً انهُ يرى الطائر في الفضاء فيطير اليه ويمسكه بجناحه ثم يعود الى مقره على الأغصان ولا يمكّن الطائر من الفرار ويقتحم الاعشاش ويفترس الفراخ وغيرها من الكبار اذا ادركها ويأكل بعض الحشرات وهو مغرم بالجنادب وبعض الدود

المترجم — عندما كنت في السودان التقيت مرة ببلجيكي كان يقيم في الكونغو البلجيكية فحدثني بعض الشيء عن الغورلا الذي لا وجود له في السودان فقال ان الغورلا أقوى من الأسد بمراحل وقوته في ذراعيه ويديه وأنيابه وان الأسد يضرب بكفهِ الفريسة كما شاهد انهُ يضرب الأعمى ولكن الغورلا يضرب ويقبض فريسته بساعديه فاذا تمكن من امساكها ضغطها ولا يتركها حتى يقضي عليها . اما الأسد فلا يستطيع هذا الامساك ولا يفهمهُ ولا يشك ذلك البلجيكي ان الغورلا اذا اصطدم بالأسد صرعهُ حتماً بل ومزقهُ تمزيقاً . وقال لي انهُ سمع حكايات شتى من اهالي الكونغو عن ضلال أسد من الأسود وعن فتك الغورلا بهِ وانهُ لما يعرفهُ من قوة الغورلا وشراسته لم يستغرب تلك الحكايات ولكنهُ يستبعد التقاء الوحشين الجبارين . وقال ان الوحش الوحيد الذي لا قبل للغورلا بهِ ولا لأي وحش آخر هو الفيل الجبار . فلا الغورلا ولا الأسد يستطيع الفتك بالفيل وهذا الفيل هو فوق الجميع بل هو سيد الوحوش على الاطلاق وسلطانها الذي لا نزاع في سيادته . والأسد يجانبهُ عجزاً لا عفة والغورلا لا شأن له بافتراس الحيوانات فهو على العموم آكل عشب . اما الفيل فهو الوحش الشريف الكريم لا يستخدم قوته الاَّ لدفع أذى ولا يعتدي على أي من الحيوانات وقد قنع بما رزقه الله من هذه الأعشاب النظيفة فيقتات بها ويشكر الله . ويا حبذا لو اقتدى الانسان بهذا الفيل المبارك وتخلى عن العدوان لا على الحيوان المسكين فقط بل على ابن أمهِ الانسان وأين الانسان في هذا العصر من حكيم العرب الذي يقول :

غدوت مريض العقل والدين فالتقي ... لتسمع أنباء الامور الصحائح
فلا تقبلن ما أخرج الماء سابحاً ... ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح
ولا تطعمنَّ الطير وهي غوافل ... عما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضرر النحل الذي بكرت له ... قواطف من أزهار بيت فوائح
فما أحرزته كي يكون لغيرها ... ولا جمعته للندى والمنائح

فالانسان أظلم مخلوقات الله يفتك بالبائس من الحيوان الاعجم ويفتك أعظم الفتك بأخيه الانسان